الأندلس : تاريخ اسم وتطوره

للعالم الجليل الأستاذ محمود محمد شاكر

كتب الدكتور الطاهر أحمد مكى فى عدد الثقافة (٢٢ – يوليه ١٩٧٥) ، كلمة جيدة عن « الأندلس : تاريخ اسمه وتطوره »، ذكر فيها أن الباحثين المحدثين من العرب ، يرون أن اسم « الأندلس » ، أخذه العرب من كلمة (Vandalos) وهم « الوندال » وأن كتابتها بالجرمانية (Wandal) وجمعها (Wandalos) وأن الحرف الأول منها وهو (W) وينطق بما يشبه الواو اللغة العربية ، فيكون نطق هذا الجمع بالعربية «وندلس » ، ثم قال :

« وانقلاب الواو همزة لا تعرفه اللغة العربية أبداً » ، ثم عقب على ذلك بقوله : « إن تصور أن يكون لفظ Wandalos قد أخذ طريقه إلى اللغة العربية مباشرة ، أمر بعيد الاحتمال » . فمن أجل ذلك ، بحث لها عن مدخل ، فانتهى إلى أن هذا اللفظ قد انتقل إلى العربية عن طريق اللغة البربرية ، ثم أفاض فى توجيه دخول هذا اللفظ إلى البربرية وعن افتراض تحوله فى اللسان البربرى من الواو إلى الهمزة طبقاً للقواعد الصوتية فى اللغة البربرية ، ثم ختم ذلك بقوله : « فهو إذن دخلت اللغة العربية عن طريق اللغة البربرية ، وليس من اللاتينية ، أو الجرمانية ، أو اللاتينية المتكلمة فى إسبانية مباشرة . وبذلك يمكن حل المشكلة صوتياً وتاريخياً ، فإن غياب حرف V أو W من كلمة أندلس ، لا يمكن تفسيره إلا فى ضوء هذا الفهم » .

كان الدكتور الطاهر فى غنى عن كل ما كتبه عن اللغة البربرية ، وعن اتجاهاتها الصوتية ، وعن افتراض ما افترضه فى تحول الواو فى اللغة البربرية . بيد أن الذى حمله على ارتكاب هذا الطريق البعيد ، هو ما اعتقده اعتقاداً جازماً ، من أن « انقلاب الواو همزة لا تعرفه اللغة العربية أبداً » . والأمر فى الحقيقة على خلاف ما اعتقد ، وذلك أن قلب الواو همزة قياس مطرد فى العربية بلا شك .

وتلخيص القول فى ذلك : أن « الواو » إذا كانت فى أول الكلمة ، فلها ثلاثة وجوه : إما مضمومة ، وإما مكسورة ، وإما مفتوحة ، فإذا كانت الوار مضمومة ، فيكاد يكون قياساً مطردا فى العربية أن تقلب الواو همزة . من ذلك فى القرآن العظيم ، فى سورة المرسلات : « وإذا الرسل أقتت » ، وهى من « الوقت » ، وقرأ أبو عمرو وابن ورداك : « وإذا الرسل وقتت » بواو مضمومة الأصل . وقالوا فى « وجوه » جمع « وجه » « أوجوه » ، وغيرها كثير .

وإذا كانت الواو الأولى مكسورة ، فقياس مطرد أيضاً أن تقلب همزة ، نحو قولهم فى « وسادة » « أسادة » وفى « وشاح » « أشاح » وغيرهما كثير أيضاً

وأما إذا كانت الواو الأولى مفتوحة ، وهو الذى عندنا هنا فى « وندلس » و « أندلس » ، فقلب الواو المفتوحة قليل فى العربية ، وليس قياساً مطردا ، ومع ذلك فهو كثير أيضاً على الوجهين ، أى أن تقلب الواو الأولى المفتوحة همزة ، وأن تقلب الهمزة المفتوحة واوا . وذلك نحو قولنا « وحد » فتقول « أحد » بفتحتين ، وهو من « الوحدة » بلا ريب ، وقولهم أيضاً : « إمرأة وناة » ، أى كسول ، بطيئة القيام فيها فتور من طول النعمة ، فقالوا : « امرأة أناة » ، وقالوا للجبل الصغير « وجم » بالواو ، فقالوا فيه « أجم » وقالوا : وسن الرجل »

و « أسن » ، إذا غشى عليه من نتن ريح البئر ، وقالوا : « وكدت العهد » و « أكدته » ، وقالوا « ولته حقه » و « ألته حقه » أى نقصه حقه ، وقالوا : « ورخت الكتاب » ، و « أرخته » ، وقالوا « ورشت بين القوم ، وأرشت بينهم » ، أى أفسدت ما بينهم وحرشت بعضهم على بعض ، وقالوا : « ماو بهت له ، وما أبهت له » أى ما فطنت له ، أو ما باليت به لقلته وتفاهته ، وقالوا « وج » وهو اسم بلدة الطائف بالحجاز و « أج » بفتح الهمزة ، وقالوا « وجه : أجه » لوجه الإنسان ، وغير هذا كثير ، فضلا عن قلب الواو همزة إذا كانت فى وسط الكلمة أو فى طرفها .

وإذن فالأمر على خلاف ما يعتقد الدكتور الطاهر ، من إنكاره قلب الواو همزة ، وأن العربية لا تعرف هذا القلب أبداً .

وإذن فأقرب شيء إلى الاحتمال ، هو ما رآه الدكتور الطاهر بعيد الاحتمال ، أن يكون لفظ « وندلس » قد دخل إلى العربية دخولا مباشراً بقلب الواو الأولى المفتوحة همزة . والذى ألجأ سلفنا الفاتحين من العرب أصحاب اللسان العربى إلى إبدال الواو الأولى المفتوحة همزة ، أنها جاءت بعدها نون ساكنة ، ومخرج الواو من طرف الشفتين ، ومخرج النون الساكنة من الخياشيم ، فثقل ذلك على ألسنتهم لقرب المخرجين ، ولارتداد النفس من الشفتين عكسا إلى الخياشيم ، ولأن الواو المفتوحة أخفى من الواو المضمومة والمكسورة فى النطق ، ولأن الهواء المندفع من الحلق عند نطق الواو المفتوحة آت من عند مخرج الهمزة فى أقصى الحلق ، فمن أجل ذلك كله آثروا أن يقلبوها همزة صريحة من أقصى الحلق ، ليندفع هواؤها إلى مخرج النون الساكنة من الخياشيم سهلا بلا مؤونة على أداة النطق .

ولهذه الأسباب نفسها ، رأيت أصحاب اللسان العربى فيما استظهرته وتتبعته

قد كرهوا أن تجتمع الواو والنون متجاورتين فى أول الكلمة الواحدة من عربيتهم ، وتكون الواو أصلا فى الكلمة ، والنون التى تليها أصلا أيضاً فى الكلمة .

وإذن ، فالذى لا شك فيه ، هو أن لفظ « وندلس » ، قد دخل اللسان العربى مباشرة ، بعد إخضاعه للقانون الصوتى العربى ، ليدخل بعد أن يصقله الذوق العربى دخولا سهلا سارياً على أصول لغته .

وللأخ الدكتور الطاهر أجزل الشكر على الفوائد الكثيرة التى تضمنها مقاله عن « الأندلس » .

* * *

● ولى تعليق قصير :

كتبت مقالى عن لفظ الأندلس وتطوره وتاريخه وأنا بعيد عن القاهرة ، وجاء تعليق العالم الجليل الأستاذ محمود شاكر عليه فى العدد التالى من الثقافة (العدد ٢٣ ، السنة الثانية ، أغسطس ١٩٧٥) ، وأنا بعيد عنها أيضاً . كنت فى الأندلس نفسه لبعض المراجعات التاريخية والأدبية ، أقوم بها هناك فى موقع الأحداث نفسها ، أطلالا ومهابط وبشرا ، ولم أقرأ التعليق إلا بعد شهور طالت من نشره ، ففاتنى فرصة أن أزجى إليه الشكر صادقاً وعميقاً على ماصوب وصحح وأفاد . ولما حاولت ذلك بشخصى ، وما أكثر ماحاولت ، كنت أجده حين يتاح لى الوقت ، وما أقل ما يتاح ، خارج القاهرة على سفر أيضاً ، ولعل تعليقى هذا يقوم بالسفارة عنى ، فى أن يحمل للأستاذ الفاضل الذى تعلمنا منه الكثير المفيد ، فتية نقرأ له ، وشباباً نتابع ذوده عن الإسلام والعروبة فى حزم وصلابة واستنارة ، طالما ذكرتنى بعالم الأندلس العظيم ابن حزم القرطبى ، إجلال وتقدير من عرفه على البعد ، وأكبره عن طريق الحرف .

إن الحياة فى تطورها تميل إلى الأسهل دواماً ، ويؤثر الإنسان فى مواقفه ما يتطلب جهداً أقل ، ويقوى أو يضعف ، ويشتد أو يسهل ، من قواه مايقتضيه هذا التطور ، والشيء نفسه يقال عن الكلمات أيضاً ، وهو ما ندرسه تحت قواعد الإعلال والإبدال والإدغام وغيرها . وإذا استثنينا الكلمات التى ضاعت عبر الزمن ، وأدلتنا عليها ظنية ، مستمدة من استنطاق ماوصلنا ، كسقوط ضمير المثنى المتكلم وميل العربية المعاصرة إلى تجاوزه فى حالتى الغائب والمخاطب ، فإن حالات الإبدال ، إذا لم تكن من صنع الجدل الصرفى المجرد ، وصلتنا فيها الكلمة على صوريتها ، أو صورها ، الحرف فيها مبدلا وقبل أن يبدل ، وهو ما نفتقده فى لفظ أندلس تماماً ، لأن الأصل وهو « وندلس » ، لم يصلنا بهذه الصورة فى أية وثيقة ، هذا إذا لم تكن صورته الأخرى ، وهى « بندلس Vandalos » ، هى التى كانت مستعملة وشائعة فى إسبانيا لأنها صورته اللاتينية ، وكان الأندلس لحظة الفتح لاتينيا كله ، فى لغته على الأقل .

وعملية الإبدال ، كما أشار أستاذنا بحق ، ليست فى واقعها إلا ظاهرة صوتية من الميل إلى الأسهل ، وهو أمر لا يتم بين عشية وضحاها ، وإنما يحتاج إلى وقت تستخدم فيه الصورة الأولى ، ثم تثقل مع الزمن ، أو حتى للوهلة الأولى ، فنجد من يبدل من حروفها ما ثقل عليه ، فطرة لاصناعة ، مستخدماً بدلا منها ماخف فى لفظه ، ولطف على أذنه ، وتتجاور الصيغتان زمناً يقصر أو يطول ، واحدة على لسانه وآخرين ، والأخرى فى أفواه الكثيرين من معاصريه ، هو يتكلم بما أحب ، وهم يتحدثون بما تلقوا ، ثم تبدأ الصورة الثانية فى الذيوع والانتشار ، وترسل بالأولى إلى زوايا النسيان ، لتصبح تاريخاً يدرسه اللغويون .

ومثل هذا الأمر لا نجده فى لفظ « الأندلس » ، لأننا نلتقى بها مدونة على هذه الصورة بعد ست سنوات من الفتح فحسب ، وهى سنوات جد قليلة ، ولا تقدم مناخاً ملائماً لمثل هذا التطور على أرض الأندلس نفسها ، ولا حتى فى المغرب ، لأن حركة التعريب فى كليهما ، كانت فى خطاها الأولى ، لقد رافقت اللغة العربية الإسلام فى مده ، ولكنها كانت تجىء فى مؤخرته ، وراءه وعلى خطوات منه .

لهذا قلت : لما يزل فى نفسى من الأمر شىء ، وكم وددت أن تكون كلمة أستاذنا الجليل هى الفاصلة ، إذن لقرت بها عينى راضياً وشاكراً ، وإلى أن نبلغ هذا القول الفصل ، أو الأرجح ، سأظل عند فرضى فى أن لفظ الأندلس ، دخل إلى اللغة البربرية أولا ، وعنها أخذه العرب وتلقوه .